

Mustapha MADI
مصطفى ماضي

ELITES ET ESPACES CULTURELS DANS L'ALGERIE CONTEMPORAINE

النخب المثقفة والفضاءات الثقافية في الجزائر

Rupture, discontinuité voire "conflit" semblent être les concepts à mettre en oeuvre dans une tentative pour caractériser les processus de formation des élites intellectuelles et culturelles dans l'Algérie contemporaine ainsi que la structuration des espaces culturels.

La destruction des cadres traditionnels de la société algérienne par la colonisation (écoles, medersas, zaouias) et la rupture des circuits internes ou externes de circulation de la production intellectuelle ont eu pour effet la déstructuration des espaces culturels traditionnels, marquée essentiellement par le déclasserment de la langue arabe, son confinement au domaine religieux ainsi que par la rupture des Algériens (élites "lettrées" et peuple) avec l'espace géo-politique et culturel arabe (maghrébin et moyen-oriental). Cette rupture, aggravée par la progression de l'analphabétisme, a figé les structures culturelles traditionnelles qui, incapables de résister, se sont recroquevillées sur elles-mêmes. Elles ne purent donc avoir connaissance des idées de la Nahda dans l'Orient musulman et arabe.

A cette rupture externe, s'ajoutent les effets d'une rupture interne entre d'une part les élites formées à l'école française et les élites traditionnelles formées en langue arabe, et d'autre part entre ces deux formations culturelles et le peuple accablé par la misère et l'ignorance. Il y aura bien une tentative pour rompre cette discontinuité par l'émergence de lettrés, oulémas formés en Orient, qui tenteront d'introduire les idées réformistes en Algérie et de secouer par là - même les cadres sclérosés de la pensée et de la production culturelle arabophone en Algérie. Autre tentative, celle d'une catégorie de lettrés bilingues (arabe/français) à travers l'expérience des medersas et des lycées franco-musulmans qui cependant, ne permettra pas d'atténuer les effets durables et constants de la déstructuration d'un espace culturel marqué par la non homogénéité des formations et des références idéologiques et culturelles voire par leur antagonisme. Cet espace culturel est de fait traversé par les conflits entre la tradition et la modernité, l'appel au retour aux sources (et son pendant, la préservation de la personnalité) et l'acculturation induite par la séduction et l'imitation du modèle occidental de civilisation.

Ces conflits et ces ruptures vont perdurer et marquer l'espace culturel de l'Algérie indépendante. Chaque type de formation culturelle va trouver son prolongement dans la formation des élites post-indépendance, confirmant par la diversité de leurs parcours et de leurs références le phénomène de rupture et de discontinuité qui devient la caractéristique saillante de la structuration du champ culturel algérien.

Il s'agit, donc, pour les promoteurs de ce projet de recherche, afin de suivre les phénomènes de rupture et localiser les thèmes d'achoppement entre les diverses catégories intellectuelles, de réaliser une monographie systématique des intellectuels algériens aussi bien de formation monolingue (arabe et / ou français) que bilingue en étudiant leurs parcours de formation (scolarisation, formation, parcours professionnel, institutionnel ou politique), leur implication dans le tissu social, leurs devenirs, etc...

Cette approche implique aussi l'analyse des productions de ces intellectuels afin de repérer les traces de leurs participation et implication dans la structuration du champ culturel algérien.

Au total un tel travail suppose la réalisation d'entretiens avec les individus appartenant aux catégories précédemment citées et l'analyse de leurs productions.

Par ailleurs, en raison de liens séculaires entre l'Algérie et la Tunisie ainsi que de l'ancienneté des relations culturelles entre ces deux pays, les promoteurs du projet ont été amenés à privilégier une approche comparative, étendue à l'espace maghrébin dans son ensemble puis élargie au monde arabe dans sa profondeur géo-politique et culturelle.

2 - التصور العام (محاوور البحث)

أ- دراسة الفئات المعربة والأنماط الثقافية المختلفة

- الأنماط الثقافية قبل الإستعمار الفرنسي.
- خريجو الزوايا.
- خريجو معاهد جمعية العلماء.
- خريجو بعثات جمعية العلماء.

ب- دراسة الفئات المفرنسة

- المفرنسون : نتائج المدرسة الفرنسية.
- المدرسيون : خريجو الثانويات الفرنسية - الإسلامية.

3 - دراسة مقارنة : الإصلاح في الجزائر وتونس وتأثير الفكر النهوضي

على النخبة المثقفة في البلدين :

- مدرسة باردو الحربية (خير الدين باشا).
- الصادقية ونظام التعليم المدرسي في تونس (1).
- علاقة الزيتونة بمعاهد جمعية العلماء.

4 - مراحل إنجاز المشروع

- يتم إنجاز المشروع على مراحل، وتمتد كل مرحلة على سنتين :
- المرحلة الأولى : تناول الجزائر.
- المرحلة الثانية : تناول الدراسة المقارنة.
- المرحلة الثالثة : تقديم النتائج والإنطلاقة في دراسة المغرب.

(3) - كان شعار الصادقية :

وللمغرب الأقصى تراثه العربي الاسلامي العريق وجامعة القرويين التي كانت لها علاقة وطيدة بالزيتونة والازهر والشام كما كان للمغرب ايضا مدارسه ومعاهده التي لم يصلها الوجود العثماني ولا الاستعمار الثقافي اللغوي - الفرنسي بنفس الحدة التي عرفتھا الجزائر. اما الجزائر فلم تعرف لا التجربة التونسية ولا التجربة المغربية، لقد عاشت استدمارا ثقافيا استيطانيا جعلها تعيش بعد الاستقلال فضاء ثقافيا ممزقا من حيث الفكر واللغة . وبعد حصول البلدان المغاربية على الاستقلال ، اختلفت السلط في المغرب العربي في معالجة المسألة الثقافية واللغوية طرحا وتناولا. لقد انطلقت التجربة الجزائرية متخوفة من تجربة الجيران بحجة التخوف من "الفرنسة" او "الازدواجية" اللغوية بحيث طغى عليها الطرح السياسي. واذا كانت السلطة في كل من تونس والمغرب قد "شاركت" النخبة المثقفة في انجاز "مشروع التعريب" فان السلطة في الجزائر قد عملت على ابعادها وتغييبها في محاولة "انجاز مسيرة التعريب" التي اعتبرها الحزب الحاكم بمثابة استمرارية لثورة التحرير او الوجه الثقافي للثورة المسلحة.

لقد انطلق التعريب في الجزائر كـ"سلاح سياسي ضد" الكتلّة الفرانكوفونية" وكتحدي لفرنسا زعيمة المجموعة الفرانكوفونية، فالدور الانتلجاني الذي حضر في التجريتين التونسية والمغربية قد ابعده من التجربة الجزائرية أين اتخذت المسألة الثقافية واللغوية فيها منعطفًا ايدولوجيا وسياسيا بعيدا عن التناول العقلاني وعن المتطلبات العامة والتقنية للمجتمع الجزائري. ان القطيعة اللغوية والثقافية التي تسبب فيها الاستعمار الفرنسي ازدادت حدة واتساعا مع الاستقلال ومنذ سنواته الاولى ؛ وعض ان تصبح المدرسة الجزائرية نواة اولى لبناء مشروع المجتمع المراد انجازها اصيحت موضوعا وموضعا للصراع والنزاعات الثقافية والسياسية وبهذا تقاسمت الفئات المثقفة "المهام" فيما بينها خادمة في ذلك "السلم الاجتماعي" الذي كانت تبحث عنه السلطة آنذاك ورسمت الحدود بين مهام الفئة الفرنسية ومهام الفئة العربية. للاولى محيطها وفضاءها : الاقتصاد والتسيير وللثانية مؤسساتها وهيئاتها الحزب والثقافة والمدرسة والمسجد.

هذه القطيعة دفعت بالمجتمع الجزائري الى تقسيم الفضاء الثقافي : اللغة العربية للأصالة واللغة الفرنسية للمعاصرة، العربية لسكان الريف والفرنسية لسكان المدينة ، الفرنسية ولغة المؤسسات الصناعية والعلاقات التجارية والاقتصادية الخارجية والداخلية والعربية لندوات ومناقشات حزب جبهة التحرير والمؤتمرات الاسلامية .

٦- ميدان الدراسة "المقترح"

يتناول هذا المشروع اولا تشكل النخب المثقفة والفضاءات الثقافية في الجزائر اساسا ومقارنتها بالانماط الثقافية في البلدان المغربية. نحن امام انماط وفئات مثقفة متعددة لكل واحدة وضعها الطبقي وتصورها الثقافي والمجتمعي.

ب - تونس : كميدان للدراسة المقارنة مع الجزائر

لقد تعددت بعثات جمعية العلماء الى الشرق العربي. (مصر، العراق، الكويت، وسوريا وخاصة بعد سنة 1954) الا ان تونس كانت تمثل المكان الامثل بالنسبة لجمعية العلماء نظرا للقيمة العلمية التي عرفتھا جامعة " الزيتونة" من جهة وقربها من الجزائر من جهة ثانية. كما ان اختيارنا لتونس يعود اساسا الى التقارب الموجود بين نظام التعليم الصادقي والنظام الفرنسي - الاسلامي.

لقد عرفت الجزائر استدمارا لغويا وثقافيا ليس مع الاستعمار الفرنسي فحسب بل ايضا مع الوجود العثماني المكثف اما المغرب فلم يعرف لا هذا ولا ذلك. ان خصوصية الاستعمار الفرنسي في الجزائر كانت السبب الحاسم في احداث قطيعة ثقافية - لغوية ليس فقط مع البلدان المغاربية بل وايضا مع البلدان العربية المشرقية .

وبعد مرور قرن من الاستعمار الاستيطاني عرفت الجزائر عزلة ثقافية وقطيعة لغوية فكرية مع البلدان العربية والاسلامية وعاشت قطيعة ماثلة داخلية بين افراد شعبها المثقفين منهم على وجه الخصوص . تتمثل القطيعة الاولى في عزلة الجزائر عن البلدان العربية في عدم انتقال او مرور الفكر النهضوي العربي الذي ظهر في البلدان العربية المشرقية والسبب في ذلك يعود الى الاستعمار الذي كان بمثابة استدمار للجسر اللغوي. هذا الانكسار الثقافي لم يسمح للفكر النهضوي بالوصول او التسرب الى الجزائر او لم يتغلغل بدرجة تسمح له بفتح عقول وتنوير الفئات التقليدية التي لم تكن تعرف الا حروفا عربية وثقافة زوايا (1) لم تصل الى مستوى لا الزيتونة ولا القرويين ولا الازهر ولا الشام. اما القطيعة الثانية فهي القطيعة اللغوية والفكرية الداخلية اي تلك التي حصلت داخل الفئات الثقافية نفسها.

- الفئة الاولى وهي في غالبيتها خريجة المساجد والزوايا ونجد ضمنها فئة قليلة تخرجت من الزيتونة والازهر وكذلك المدارس الحرة لجمعية العلماء الجزائريين.

- الفئة الثانية هي نتاج المدرسة الفرنسية وهي فئة تشبهت بالثقافة الفرنسية وتحكمت في اللغة الفرنسية. ان عدم التجانس الاجتماعي والسياسي والفكري هو الطابع المشترك والمميز للفئتين.

- الفئة الثالثة والاخيرة هي نتاج المدارس الفرنسية-الاسلامية والمدرسين فهي فئة مزدوجة الثقافة واللغة (عربية - فرنسية او فرنسية - عربية). لا هذه الفئة او تلك كانت تجيد التكلم والكتابة بلغة المجتمع... فقد عرف المثقفون الاوائل منذ البداية الانسلاخ عن مجتمعهم وفقدوا الارتباط العضوي او الحبل السري الذي لا يمكن ان يتمثل في غير اللغة... لقد ادى هذا الانفصال الى هروب فئة المثقفين بحيث التجأ بعضهم الى ابطال شرق اوسطين بحثا عن لغة العصر الذهبي... دون ان يتم ذلك عن طريق التغلغل والانغراس داخل المجتمع المدني. اما البعض الآخر فراح يستمد ويفترق من التراث الثقافي لـ"فرنسا الحريات" وقيمها لعله يجد ما يساعده على مكافحة الاستعمار الفرنسي. هذه الفئة الاخيرة لم تستطع التغلغل داخل الوعي الوطني الجزائري (2) .

لتونس جامع الزيتونة المستتب ومدرسة باردو الحربية التي اسست سنة 1840 على منوال المدارس الاروپية الحديثة والتي كانت بمثابة الثورة على التعليم التقليدي من حيث المضمون والشكل بتدريسها العلوم العصرية باللغات الاجنبية مع المحافظة على العلوم الاسلامية واللغة العربية ولتونس ايضا مدرسة الصادقية التي اسست سنة 1875 والتي كانت تتميز بحداثة تعليمها الذي كان عصريا في مضمونه ومناهجه المبنية على العقل والنقد.

(1) انظر :

MAZOUNI Abdallah, "Cultures et sociétés : le cas de l'Algérie de 1962 a 1973", in Revue Algérienne des Sciences Juridiques Economiques et Politiques, vol. XII., n1 , mars 1974.

(2) على الكنز، حول الأزمة، الجزائر، بوشان، 1990.

النخب المثقفة والفضاءات الثقافية في الجزائر

مصطفى ماضي

- تتناول هذه الدراسة بصدد الانجاز " النخب المثقفة والفضاءات الثقافية في الجزائر" وتتمحور حول :
- أ - دراسة الفئات المعربة والانماط الثقافية المختلفة
 - ب - دراسة الفئات المفرنسة
 - ج - دراسة مقارنة محور الاصلاح في الجزائر وتونس و مدى تاثير الفكر النهضوي المشرقي على النخبة المثقفة في البلدين ويتكون فريق البحث من :
 - خولة طالب الابراهيمى : دكتوراه دولة .
 - محمد اخضر معقال : دكتوراه دولة .
 - مصطفى ماضي : دكتوراه حاققة تالفة ومكاف بالدروس .

يعمل هذا الفريق ضمن وحدة التنظيم الإجتماعي والثقافي التي يتراسها الأستاذ علي الكنز- مركز الأبحاث في الإقتصاد من أجل التنمية Centre de Recherches en Economie Appliquée (CREAD) pour le Développement. للإشارة، فان الأستاذ مصطفى ماضي المسؤول عن هذا الفريق يبحث حاليا عن اتفاقية بحث (convention de recherche) مع مركز او هيأت بحث لإنجاز هذا المشروع. علما ان مجموعة البحث هذه قد انطلقت منذ سبتمبر الماضي في انجاز هذا المشروع على مستوى الجزائر (انجزت الدراسة المنوغرافية لاعضاء جمعية العلماء وبدأت مع فئة او حادي اللغة : (المفرنسون). وفي ما يلي تقديم اشكالية البحث كما صاغها الباحثون انفسهم.

1- طرح الاشكالية

للجزائر خصوصياتها المجتمعية والثقافية فهي تشترك مع البلدان المغاربية في التاريخ والثقافة بدرجات متفاوتة نسبيا كما تتميز المسالة اللغوية في الجزائر بخصوصيات سوسولوجية وتاريخية لم تعرفها البلدان العربية المشرقية وهي ايضا مغايرة لكل من تونس والمغرب ، فالجزائر عرفت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني اما تونس والمغرب او البلدان العربية الاخرى فقد عرفت بما يسمى بالحماية.